**جامعة عبد الرحمن ميرة – بجاية.**

**كلية الآداب واللغات**

**قسم اللغة العربية وآدابها**

**المحاضرة آراء أهل المشرق والمغرب في مفاهيم البلاغة العربية**

**السنة الأولى (ل.م.د) المجموعة 1 الأستاذة: بن دلالي**

**يحتل علم البلاغة من المكانة السامية والمرتبة الرفيعة بين العلوم ما لا يستطيع أحد أن ينكره أو يشكك فيه. وموضوع هذا العلم هو الفن الأدبي، إذ كان النظر إلى الأدب- بصفة عامة- على أنه تعبير جميل عن فكرة جميلة، وكانت علوم البلاغة هي الثمار التي أنتجتها تلك المحاولات لإحصاء مظاهر الجمال والروعة في التعبير الأدبي، وما يمكن في هذا التعببر من دقائق وأسرار. فالبلاغة إذن لا يمكن فصلها عن موضوعها وهو الأدب الذي جاء القرآن الكريم في أعلى مراتبه، وهؤلاء العلماء الأقدمون ممن ألفوا في الفنون المختلفة، كانوا يدركون هذه الحقيقة إدراكاً تاماً ويعلمون تلك المنزلة لهذه الأصول وتلك الضوابط البلاغية، سواء قبل نضج هذه القواعد وانتظامها في سلوك العلوم أو بعد أن استقرت وأخذت صورتها النهائية، وتحددت معالمها، والناظر في مؤلفات هؤلاء الأقدمين يجدها غير بعيدة عن قواعد هذه العلوم أو شرحاً متناثراً لها .
ولعل التماس السبب في هذا سهل ميسور، فنواحي الفن الأدبي لا تكاد تنحصر إذ أن الفن وثيق الصلة باللغة وبمفرداتها وبالنحو الذي تقوم به العبارة وتصح على هدي من قواعده، وبالتفسير الذي يستجلي ما يحويه القرآن الكريم من معان وأسرار وبالفقه الذي يبحث عن الأحكام من خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي هي في أعلى مراتب الفن الأدبي، وكذا علم الأصول وعلم الكلام وغيرها من العلوم، فعالِم اللغة وعالِم النحو وعالِم التفسير أو الفقه أو الأصول أو الكلام وغيرهم كل هؤلاء كتبوا في البلاغة العربية، وقدموا- من خلال بحوثهم- دروساً وأصولاً وقواعد تمس علم البلاغة في الصميم، ومن ثم فإن نسبة هذا العلم لعالم بعينه أو فترة بعينها هو ضرب من التسامح والتقريب وليس على سبيل الدقة والتحديد. فالمتتبع لتاريخ هذا العلم ينبغي أن يعود به إلى اليوم الذي اكتملت فيه اللغة العربية وأصبح لها كيان مستقل، وأضحت لغة قوم يعتزون بها ويتفاخرون.
فلو عدنا إلى العصر الجاهلي لوجدنا الشعراء يهتمون بتنقيح ألفاظهم وعباراتهم، ويعنون عناية فائقة بمراعاة المناسبات والأحوال في كل ما قالوا، ولا يرضون لأنفسهم أن توضع كلمة في مكان لا يليق بها، كما نجد النقاد الذين يحكمون على الأعمال الأدبية بدافع الهوى والذاتية، وإنما يبنون أحكامهم على أساس من قواعد وأصول أقروها، واعترف بها جمهورهم وهي وإن تكن مكتوبة في كتاب يجمعها إلا أنهم يحفظونها بفطرتهم وسليقتهم.
وأكاد أقطع بأن القواعد البلاغية كأصول ومقاييس كانت واضحة في العقول العربية، وكانوا يعلمون متى يبسطون الكلام ويطنبون القول، ومتى يكتفون بالكلام الموجز، واللمحة الدالة، ويعلمون متى يؤكدون القول، ومتى يرسلونه خلواً من التأكيد ومتى يقدمون أو يؤخرون إلى غير ذلك من الأصول التي كانوا يدركونها إدراكاً تاماً.
أقول هذا وأكاد أجزم به في الوقت الذي كانت فيه أصول النحو وقواعده، غير موجودة في عقول العرب، أو لم تكن واضحة لهم، فلم يكونوا على علم بأسباب رفع هذا الاسم أو نصب الآخر، أو موقع هذا من الجملة إلى غير ذلك من قواعد هذا العلم، وكل ما يعرفونه من هذا أنهم يتكلمون بكلام صحيح مستقيم يؤدون به معانيهم وأغراضهم، وعندما نظر العلماء فيه- في بداية عصر التدوين- وجدوا كلاماً مضبوطاً له قياس، فضبطوا هذه الأقيسة والضوابط، في هذه الحلقات وتلك الأطوار وفي مجال التأليف البلاغي، نجد كثيراً من العلماء الذين ساهموا في بناء صرح هذا العلم، والذين لمعت أسماؤهم لتضيء تاريخه، يأتي في مقدمتهم من المشارقة عبد القاهر الجرجاني والسكاكي، أما من المغاربة فنذكر على سبيل المثال: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني(2) الذي بلغت شهرته الآفاق من خلال كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" وحازم القرطاجني وابن خلدون...إذ شهدت منطقة الغرب الإسلامي في القرن الثامن الهجري تطورا هائلا ومتميزا في مجال النقد والبلاغة وذلك بفعل إسهامات بعض العلماء الكبار وفي مقدمتهم : أبو محمد القاسم السجلماسي وابن البناء المراكشي وحازم القرطاجني وعبد الرحمان ابن حمد بن أبي بكر المعروف بابن خلدون صاحب التصانيف العديدة والمتنوعة وأهمها مقدمته المشهورة وكتاب العبر وغيرهما.**

1. **جهود المشارقة في الدرس البلاغي:**

**تعدّ نظرية النّظم من أهم النظريات في البلاغة العربية، وبخاصة بلاغة *عبد القاهر*، وقد عرض لها كمارأينا في "دلائل الإعجاز" عرضا واسعا، وكذلك أشار إليها في "أسرار البلاغة" ولعلّه من الخطأ ما شاع بين أوساط الباحثين من أنّ "دلائل الإعجاز" خاص ببحوث على المعاني فقط، ولكن من قرأ هذا الكتاب بوعي وتمعن يكتشف أنّ *عبد القاهر* لم يخصه ببحوث في علم المعاني فحسب، بل تكلم فيه عن المجاز، والاستعارة والتشبيه والكناية، مما هو من مباحث علم البديع، فالكتاب لم يؤلف لعرض مباحث علم البيان، وتكلّم فيه كذلك عن التقسيم والمزاوجة والسجع وغيرها مما هو من مباحث علم البديع، فالكتاب لم يؤلف لعرض مباحث علم المعاني وحده، إنّما ألّفه *عبد القاهر* لعرض نظريته في النّظم، وتفسير قضية إعجاز القرآن الكريم بها.من المعروف أنّ *عبد القاهر* ليس مخترعا لفكرة النّظم، فهو مسبوق إليها بجهود كثير من العلماء كما أشرنا إليه في مدخل دراستنا، فقد وجدناها عند الجاحظ والرّماني وعبد الجبّار من بيئة المعتزلة، وتداولاتها أيضا بيئة أهل السنة، حيث قال بها الخطابي ثمّ الباقلاني.*فعبد القاهر* نادى بنظرية عبد الجبّار، "الذي رأى أنّ إعجاز القرآن في فصاحة لفظه المنظوم من ثلاث جهات من حيث وضعها، ومن حيث موضعها، ومن حيث حركتها الإعرابية، وهو بهذا يرى أنّ الجمال يتحقق بالقيم الموسيقية في خاصية اللّفظ وفي القيم الجمالية من حيث تشكيل اللّفظة وموضعها من السياق، وبالقيمة المعنوية التي ترمز إليها حركة اللّفظة الدالة على موقع اللّفظة المعنوي أو المعنى الوظيفي لنمو الكلام" [[1]](#footnote-2)(1) *فعبد القاهر* ركّز كلّ الجمال في الخاصية الثالثة وهي معاني النّحو.**

**وقد كان من أثر نظرية النّظم أن لفتت نظر الإمام الزّمخشري، فطبّقها تطبيقا وافيا في تفسيره "الكشّاف" حتّى أُعتبر أول تفسير بياني قائم على إدراك العلاقات بين الكلمات وعلى إدراك روعة الإعجاز في المفردات والجمل، "فالزّمخشري عمّق الفكرة التي ألقى بها *الجرجاني*، بأن ربط بين علم المعاني والموضوعات المتصلة بصحة العبارة وسلامتها مع الوقوف على المعاني الثواني، ورَبَطَ كذلك بين علم البيان والتخييلات التي تقوم عليها التشبيهات والمجازات...، ولكنّه يتألّق في علم المعاني أكثر من علم البيان ذلك لانشغاله فيه بالدفاع عن هيئة الاعتزال، مثلما انشغل *عبد القاهر* في علم المعاني بالدفاع عن فكرته في النّظم ومعاني النّحو. وبالتالي كانت نظرات الزّمخشري عبارة عن صورة تفسيرية تحليلية تطبيقية لنظرية *عبد القاهر*"[[2]](#footnote-3)(3).**

**كما حظي *عبد القاهر* في كتاب الرازي (ت606هـ) "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" بنصيب طيب. حيث استفاد منه في الكثير من الآراء منها ربطه الأسلوب بالنوع الأدبي، واعتبار أنّه لكلّ أسلوب خصائصه الفنية التي يتفرّد بها، فالقرآن له أسلوبه الخاص، والشعر له أسلوبه الخاص، والخطب لها أسلوبها الخاص، والرسائل لها أسلوبها الخاص كما قدّم آراء في محاولة ربطه بين الأسلوب والمبدع، حيث اعتبر الأسلوب خاصيّة تمثّل مُنشئها"[[3]](#footnote-4)(2)؛ وهذه الفكرة امتداد لسابقتها، إلا أنها بقيت بذرة جافة لم تجد من ينمّيها حتّى تأتي أكلها.**

**وقد أفاد السّكاكي من *عبد القاهر* في جلّ ما قام به من جمع الموضوعات البلاغية، وتحديدها تحت ثلاثة علوم: المعاني والبيان والبديع" [[4]](#footnote-5)(3)، وزاد في موضوعات علم البديع "ويعرّف علم المعاني بأنّه :"تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليُحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضــي الحال ذكره"[[5]](#footnote-6)(1).**

**وقد أخذ السّكاكي فكرة النّظم وإن لم يطبقها، كما أخذ فكرة "الذوق"[[6]](#footnote-7)(2).هذه باختصار آثار *عبد القاهر* في من بعده من بيئة المشارقة.**

1. **جهود المغاربة في الدرس البلاغي:**

 **أمّا في بيئة المغاربة فنجد حازم القرطاجني (ت684هـ)، هذا الذي أورد لدراسة الأسلوب منهاجا خاصا في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" ويبدو من منهج حازم أنّه قرأ *عبد القاهر*، واستوعب مفهومه للنّظم ، وأقام هذا المفهوم في مقابلة الأسلوب؛ إلا أنّه ربط النّظم بالصياغة اللّفظية وبالعلاقات النّحوية على نحو ما قال به *عبد القاهر* حيث يقول:"ولما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد، ومسائل منها تقتنى: كجهة وصف المحبوب، وجهة وصف الخيال، وجهة وصف الطول، وجهة وصف يوم النّوى، وما جرى مجرى ذلك في غرض النّسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات، والنُّقلة من بعضها إلى بعض، وبكيفية الاطّراد في المعاني صورة وهيئة تسمى الأسلوب، وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني ونسبة النّظم إلى الألفاظ؛ لأنّ الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة من جهات غرض القول، وكيفية الاطّراد من أوصاف جهة إلى جهة، فكان بمنزلة النّظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات، والهيئة الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض، وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب؛ فالأسلوب هيئة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنّظم هيئة تحصل عن التأليفات اللّفظية"[[7]](#footnote-8)(1).**

**وهنا نلاحظ أنّ حازما اعتبر الأسلوب مشتملا على جانب من البناء اللّغوي يختص بالتأليفات المعنوية، وحصر النّظم على التأليفات اللّفظية"[[8]](#footnote-9)(2)، وبهذا يكون حاد عمّا عُرف عن *عبد القاهر* من أنّ النّظم يعتمد على الترتيب المعنوي في النّفس، ثمّ تترتب الألفاظ وفق ذلك، ولم يرد في نظريته ما قاله حازم من ربط النّظم بالتأليفات وحدها؛ والنّظم في مفهوم *عبد القاهر* لا يتساوى تماما مع مفهوم الأسلوب.**

**ومن الملاحظ –أيضا-أنّ حازما عندما تناول إعجاز القرآن عاد عن هذا الفهم إلى التسوية بين النّظم والأسلوب فقد نقل السيوطي في الإتقان، وفي كتابه الآخر المسمّى "معترك الأقران في إعجاز القرآن" – وهو مخطوط- فقرة لحازم نصّ على أنها من "منهاج البلغاء"، فسّر فيها حازم الإعجاز بأنّه ظاهر في اطراد أسلوبه من الفصاحة والبلاغة" [[9]](#footnote-10)(3).إن علم البلاغة عند حازم يعني علوم النقد مجتمعة، فعلم البلاغة هو كل ما يلزم معرفته لإتقان صناعة الشعر وحذقه ومن ثم فإن علم البلاغة في تصوره علم شامل، في حين أنه يقابله عند النقاد والبلاغيين العرب علم البلاغة الجزئي في مفهومه المدرسي، والمتمثل في ثلاثية السكاكي المشهورة: البيان والمعاني والبديع.**

**وإذا كان علم البلاغة التقليدي في مفهومه الكلاسيكي المدرسي الصرف، يرتبط بمفهوم الصواب كهدف يضعه نصب عينيه، والمقصود هنا الصواب الأدبي أي ما يحسن أن يقال، قلت إذا كان علم البلاغة يحكمه هذا التوجه المعياري فإن علم البلاغة عند حازم يتجاوز هذا الإطار الأخلاقي ذا الأبعاد المعيارية، وهو إطار يحاصر فيه رجل البلاغة التقليدي نفسه بإعداد وصفات جاهزة لتحسين الكلام وتنسيقه، ليعانق مفهوما أكثر شمولية وانفتاحا من جهة، وتشعبا وعمقا نظريا من جهة أخرى.**

**فالبلاغة عند حازم، من هذا المنظور تهتم بدراسة مهمة العمل الأدبي ثقافيا واجتماعيا، وتنكب على دراسة هذا العمل ودراسة الأدوات التعبيرية التي يتم توظيفها لبناء الماهية ولتحقيق المهمة.**

**إن حازما كان النموذج الفذ في تاريخ البلاغة العربية، وذلك لجملة أسباب أوجزها فيما يلي:**

**أ ـ استيعابه للموروث البلاغي عند العرب، وهضمه لهذا التراث.**

**ب ـ استفادته من التراث الأرسطي وتجاوزه له.**

**ج ـ تقديم دراسة عن مفهوم البلاغة ومباحثها، تنم عن أصالة في أسلوب التناول والتنظير.**

**ومثل هؤلاء من المغاربة كثير مثل ابن رشيق القيرواني، لكن هذا ما استطعنا إحصاءه ممن أثَّر فيهم *عبد القاهر* بطريقـة مباشرة أو غير مباشرة، والقائمة لا تزال طويلة إلــى حدّ أننا لا نستطيع إحصاء عددها.**

**كما ألف ابن رشيق كتاب العمدة وجعله في جزأين يضمان معاً مائة وستة أبواب، تناول فيها ما كتب عن صناعة الشعر ومسائله البلاغية عند المصنفين من قبله وعالجه وفقاً لخطة أبان عنها في مقدمة كتابه(3) "فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون" العمدة في محاسن الشعر وآدابه "إن شاء الله تعالى، وعولت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الانتصار إلا ما تعلق بالخبر، وضبطته الرواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتى بالأمر على وجهه، فكل ما لم أسند إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه، فهو من ذلك، إلا أن يكون متداولاً بين العلماء لا يختص به واحداً منهم دون الآخر، وربما نحلته أحد العرب، وبعض أهل الأدب، تستراً بينهم، ووقوعاً دونهم، بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددت كل فرع إلى أصله، وبينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشفت عنه وجه الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه." ففيما يتصل بالشعر ونقده، اتسع بحث ابن الرشيق حتى شمل الشعر كله: صياغته، ومعانيه، وطرقه في التعبير، وأغراضه، وكل ما يتصل به من قريب أو بعيد، وهو في كل ذلك يحدد مدلول المصطلحات ويكشف عن وجوه الجمال وأسراره في النص الأدبي، منتفعاً بآراء السابقين مستخلصاً لرأيه منها، واضح الشخصية، محدد المنهج، مما جعله ينال إعجاب الباحثين فراحوا يشيدون بكتابه وينوهون به في القديم والحديث كابن خلدون الذي يقول: "وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله".
وكالقفطي الذي يقول: "وهو أجّل كتبه وأظهرها، وأنه اشتمل على ما لم يشتمل عليه تصنيف من نوعه، وأحسن فيه غاية الإحسان".
وفيما يتصل بالبلاغة، تناول ابن رشيق مباحث علم البيان وهي: حد البلاغة، حد البيان، المجاز، الاستعارة، التمثيل، المثل السائر، التشبيه، الإشارة، الكتابة.
وتناول من وسائل علم البديع: الجناس، الترديد، التصوير، المطابقة، المقابلة، التقسيم، الترصيع، التسهيم، التفسير، الاستطراد، التفريع، الالتفات، الاستثناء، المبالغة، الغلو، التشكك، التكرار، المذهب الكلامي، نفي الشيء بإيجابه، الاطراد التمليط، الاتساع. أما علم المعاني فقد درس من موضوعاته: الإيجاز، التتميم، الإيغال.
هذا مع ملاحظة أن ابن رشيق أدخل أنواعاً في الصور البلاغية ليس له بها كبير صلة، حيث تكلم عن الحشو والاستدعاء، وهما من عيوب الشعر ولا يصح أن يذكرا من بين أنواعها، كما تكلم عن الاشتراك والتغاير، وأولى بهما السرقات الشعرية خصوصاً وأنه ذكر للسرقات باباً في كتابه، كذلك تحدث عن التضمين والإجازة، وأحـق بهما العروض والقوافي. ومن البين أن ابن رشيق لم يتناول مسائل البلاغة وفقاً لهذا التصنيف الذي انتهى إليه علماء البلاغة المتأخرون، وهو تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي البيان والبديع والمعاني، وإنما عالجها دون توزيع على تلك العلوم، وقد خص كل مسألة من مسائلها بباب كان له فيه دور أو موقف، وقبل أن أكشف عن هذا الدور أو ذاك الموقف أود الإشارة إلى أن آراء الباحثين ممن عرضوا قبلاً لابن رشيق في مجال التأليف البلاغي- قد تضاربت وشابها القصور، فالدكتور بدوي طبانة يقول: في معرض نقده لكتاب العمدة، معقباً على ما ذكره ابن خلدون من أن أهل المشرق أقوم على فن البيان من أهل المغرب: "والذي يطلع على كتاب العمدة يظهر له بوضوح صدق ما ذهب إليه ابن خلدون، فإن ملكة الابتكار البلاغي تكاد معالمها تكون مفقودة في هذا الكتاب وإن كان لصاحبه شيء من الفضل فهو فيما جمعه من الروايات المأثورة، وما نقله من كلام غيره من علماء البيان ونقاد الشعر".
وقريب من هذا الرأي يذهب الدكتور محمد مندور فيقول. "وتلا عبد القاهر مؤلفون بل وعاصره مؤلفون كأبي الحسن ابن رشيق القيرواني، المتوفى سنة 463هـ أو سنة 456هـ، صاحب العمدة الذي جمع في كتابه الكثير من أخبار الأدب العربي والنقد العربي وعلوم اللغة دون أن يتضح للمؤلف منهج خاص وشخصية متميزة".
أما عبد الرءوف مخلوف فيقول في سياق عرضه النقدي لكتاب العمدة: "تدور مباحث كتاب العمدة حول النقد والبلاغة، وله في ذلك الباع الذي لا يطاول".
ويرى الدكتور شوقي ضيف أن "قيمة العمدة في تاريخ البلاغة ترجع إلى دقة جمعه للآراء المتقابلة في فنونها المختلفة".
ويقول الدكتور حفني شرف: "إن لابن رشيق من الأيادي البيضاء على البلاغة ما لا يجحده سابق ولا لاحق، وما يعد ثروة للأدب والمتأدبين والبلاغيين".
وبعد، فهل كادت ملكة الابتكار البلاغي تنضب فعلاً لدى ابن رشيق، وأن جهوده في هذا الميدان اقتصرت فقط على ما جمعه من آراء غيره من علماء البلاغة دون أن يتضح له منهج خاص وشخصية متميزة؟ أم كانت له أياد بيضاء على البلاغة وباع لا يطاول؟ وبعبارة أخرى، ما مقاييس البلاغة عند ابن الرشيق؟ وكيف تناولها في كتاب العمدة؟
يمكن القول بأن مسائل البلاغة التي اشتمل عليها كتاب العمدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:
القسم الأول: مسائل نقلها ابن رشيق ممن سبقه من علماء البلاغة دون تصرف فيما نقل، وتشمل البيان، التمثيل، التقسيم الترصيع، المبالغة، المذهب الكلامي، التتميم، الإيجاز. وحسب ابن رشيق من مسائل هذا القسم أنه نقلها نقلاً التزم فيه الأمانة العلمية، يؤكد ذلك على سبيل المثال ما رواه في باب التكرار حيث يقول: "وقد نقلت هذا الباب نقلاً عن كتاب ابن المعتز إلا ما لا خفاء به على أحد من أهل التمييز".
ولا شك أن هذا هو أقصى ما يبتغي العلماء حين يطالبون الباحث أو المؤلف بذكر المصدر والمرجع ونسبة الرأي إلى قائله ما لم يكن هو صاحبه.
القسم الثاني: مسائل نقلها ابن رشيق ممن سبقه لكنه لم يكتفِ بنقلها فقط، وإنما ناقش ما نقل، وقبِل منه ما قبِل، ورفض ما رفض، صادراً في كل ذلك عن بصر وبيان لوجهة نظره ومذهبه فيما يأخذ ويدع، ويندرج تحت هذا القسم أيضاً ما قام به من تقسيم لبعض الألوان البلاغية تقسيماً جديداً، وما عمد إليه أحياناً من تغيير مسميات بعضها مما ورد لدى غيره، وما أبان عنه من فروق بين ألوان عدة طالما اختلطت حدودها، هذا مع التنبيه على أصل التسمية، وتتجلى مسائل هذا القسم في: المجاز، المثل السائر، التشبيه، الإشارة، الكناية، التصدير، الطباق، المقابلة، التقسيم، التسهيم، التفسير، الاستطراد، الالتفات، الاستثناء، الغلو، التشكك، التكرار. ويلحظ الدارس لهذين القسمين أن السمة الغالبة على تناول موضوعاتهما هي النقل، ويبدو أن ذلك هو ما حدا ببعض الدارسين إلى وسم كتاب "العمدة" بافتقاده لملكة الابتكار البلاغي، أو أن مؤلفه- كما يرى الدكتور محمد مندور- "جمع فيه الكثير من أخبار الأدب العربي والنقد العربي وعلوم اللغة دون أن يتضح له منهج خاص وشخصية متميزة". ولعل ما ساعد على ترسيخ هذا المفهوم ما صرح به ابن رشيق نفسه في مقدمة الكتاب بقوله: "فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون "العمدة في محاسن الشعر وآدابه".
والحق أنه لو لم يكن لابن رشيق غير جهد الجمع لكفاه ذلك ميزة، إذ يكفي أن كتابه من هذه الزاوية يعد من أهم المراجع التي يعتمدها الباحثون في علم البلاغة عند العرب والطالبون لفنونها التي يزخر هذا الكتاب بالكثير منها، كما يجدون فيه إشارات واضحة إلى الكتاب والمؤلفين في البلاغة، وما استطاعوا أن يخرجوه من ألقابها ومصطلحاتها، بيد أن ابن رشيق لم يقتصر على النقل أو الجمع فقط.
أما القسم الثالث: فهو مسائل يعزي الفضل في اكتشافها اسماً واصطلاحاً حيث نجده لم يسندها إلى غيره، وهي: التفريع نفي الشيء بإيجابه، الاطراد، التمليط، الاتساع.
والمتأمل هذه الأقسام الثلاثة يجد أن ابن رشيق قد نص عليها في خطته التي أشرنا إليها من قبل، حيث يندرج القسم الأول منها تحت قوله: "فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه إن شاء الله تعالى، وعولت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلا ما تعلق بالخبر، وضبطته الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتى بالأمر على وجهه"، ويدخل القسم الثاني تحت قوله: وربما نحلته أحد العرب وبعض أهل الأدب، تستراً بينهم، ووقوعاً دونهم، بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددت كل فرع إلى أصله، وبينت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشفت عنه لبس الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه"، وينطبق على القسم الثالث قوله: "فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه ولا أحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك".
ولما كان من غير المنطق هنا تناول تفاصيل كل قسم على حدة، لأن ذلك سيؤدي إلى التكرار، حيث إن المبحث البلاغي الواحد قد تتداخل فيه الأقسام الثلاثة، فإننا نؤثر معالجة كل مبحث على حده، فذلك أدعى إلى تبيان الدور البلاغي لابن رشيق، سواء ما اقتصر فيه على الجمع فقط، أو ما أضافه إلى الجمع من ملاحظات لا تخلو من طرافة، أو ما ابتكره من ألوان بلاغية. أولاً: مباحث علم البيان:
1. البلاغة:
خصص ابن رشيق مبحثاً للبلاغة، نقل فيه الأقوال المأثورة عن السابقين في تعريف البلاغة، لاسيما التعاريف التي أحصاها عن الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" وقد ختم هذا المبحث بقوله: "وقد تكرر في هذا الباب من أقاويل العلماء ما لم يخف عني، ولا غفلته، لكن اغتفرت ذلك لاختلاف العبارات، ومدار هذا الباب كله على أن البلاغة وضع الكلام موضعه من طول أو إيجاز، مع حسن العبارة، ومن جيد ما حفظته قول بعضهم: البلاغة شد الكلام معانيه وإن قصر، وحسن الـتأليف وإن طال". وبذا يتضح لنا أنه لم يزد شيئاً على ما قاله غيره في هذا الباب.
وفي البيان كذلك خصص ابن رشيق باباً لم يزد فيه عن النقل عن أبي الحسن الرماني تعريفه للبيان، وهو قوله: "البيان هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة لأنها إحضار المعنى للنفس وإن كان بإبطاء".
وقوله: "البيان الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم البيان".
ويتبع ابن رشيق هذا النقل بأسئلة من أقوال الخلفاء الراشدين معقباً عليها بقوله: "وهذا قليل من كثير يستدل به عليه، ولو تقصيت ما وقع من ألفاظ التابعين، وما تقدمت به من شعراء الجاهلية والإسلام لأفنيت العمر دون ذلك، وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ- وهو علامة وقته- الجهد وصنع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلاً، ثم ما ادعى إحاطة بهذا الفن لكثرته وإن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل".**

**وفي باب التشبيه يضيف تعريفاً إلى تعريفات السابقين للتشبيه فيقول: "التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم "خد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه، فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر، لأن الجواهر في الأصل كلها واحد، اختلفت أنواعها أو اتفقت". ثم ينقل عن الرماني تقسيمه للتشبيه إلى تشبيه حسن، وهو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بياناً، وتشبيه قبيح وهو ما كان على خلاف ذلك، وينقل عن قدامة ما ذهب إليه من أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما، حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد، وضرب مثلاً لذلك بما أنشده لإمريء القيس:
له أيطلا ظبى وساقا نعامة \*\*\* وإرخاء سرحان، وتقريب تتفل
فهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هي هي بعينها، وأفعال بأفعال هي هي بعينها إلا أنها من حيوان مختلف، ويعلق ابن الرشيق على ذلك بقوله: "والأمر كما قال في قرب التشبيه، إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ، لأنه كتشبيه نفي لشيئ المشبه الذي ذكره الرماني في تشبيه الحقيقة، وإنما حسن التشبيه أن يقرب بين البعدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك كما قال الأشجعي:
كأنّ أزيزَ الكير إزرام شَخْبِها \*\*\* إذا امتاحها في مِحلب الحيِّ ماتحُ
فشبه ضرع العنز بالكير، وصوت الحلب بأزيزه، فقرب بين الأشياء البعيدة بتشبيه حتى تناسبت، ولو كان الوجه ما قال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشجعي ضرع عنزه بضرع بقرة أو خلف ناقة، لأنه إنما أراد كبره وكثرة ما فيه من اللبن، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذي دل به على عظم ما يكون من صفة كبر الضرع وكثرة لبنه".
هذا وقد فطن إلى أحوال طرفي التشبيه من ناحية الإفراد والتعدد وأورد أمثلة كثيرة لتشبيهات تعدد فيها طرفا التشبه، لا يزال علماء البلاغة يرددونها من بعده حتى العصر الحديث، يقول: "وأصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها شيء بشيء في بيت واحد إلى أن صنع امرؤ القيس في صفة عقاب:
كأن قلوب الطير رطباً ويابساً \*\*\* لدى وكرها العناب والحشف البالي
فشبه شيئين بشيئين في بيت واحد.**

**تلك هي المباحث البلاغية التي تناولها ابن رشيق في كتابه العمدة، وأبان عنها بوضوح، ومن عرضنا لها يتبين لنا أنه قرأ مؤلفات من سبقوه من أعلام البلاغة كالجاحظ وابن قتيبة والرماني وابن المعتز والقاضي الجرجاني، بيد أنه لم يكن مجرد قارئ لما كتبه غيره، ولم يكن مجرد وسيط في أكثر ما نقل من آثار المتقدمين، وإنما كان فوق ذلك بكثير، فقد كان بوتقة تصهر ما يلقى فيها غالباً، ثم تخرجه للناس شيئاً جديداً، حيث يسلط من عقله وذهنه على ما يتناول فيحيله خلقاً آخر، يرضى عما يتلقى أحياناً، ويرفض أحياناً، ويناقش ويعارض أحياناً ثالثة، فيذهب غير المذهب، ويرى غير الرأي، مما يؤكد وضوح شخصيته، فإذا أضفنا إلى ذلك إكثاره من الشواهد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب شعراً ونثراً، مع حسن الاختيار وحسن التدقيق العلمي، فجمع بذلك إلى فن الرواية علم الدراية، وأضفنا إلى ذلك أيضاً ابتكاره لألوان بلاغية جديدة، وتفرقته بين ألوان طالما اختلطت حدودها- أدركنا أن ابن رشيق كانت له أياد بيضاء على البلاغة العربية لا تقل في صنيعها عما قدمت أيادي غيره من كبار البلاغيين.**

1. **(1) مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال حزي وشركاه، ص:72.** [↑](#footnote-ref-2)
2. **(3) المرجع نفسه، ص:234.** [↑](#footnote-ref-3)
3. **(2) ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص:17.** [↑](#footnote-ref-4)
4. **(3) ينظر: مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، ص:74.** [↑](#footnote-ref-5)
5. **(1) السّكاكي: مفتاح العلوم، مطبعة التقدم العلمية، مصر،دون سنة، ص:70.** [↑](#footnote-ref-6)
6. **(2) مصطفى الصاوي الجويني: البلاغة العربية تأصيل وتجديد، ص:84**. [↑](#footnote-ref-7)
7. **(1) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة. تونس، سنة:1966، ص: 363.** [↑](#footnote-ref-8)
8. **(2) محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية،ص:28**. [↑](#footnote-ref-9)
9. **(3) محمد رضوان الداية: تاريخ النّقد الأدبي في الأندلس، دار الأنوار، بيروت، لبنان، ، سنة: 1968، ص:525** [↑](#footnote-ref-10)